التوبة.. تصميم على اجتناب الذنوب والمعاصي

◄إنّ أفضل طريق للتزكية هو عدم التلوّث بالمعصية من أساس، يقول الإمام علي (ع): "ترك الذنب أهون من طلب التوبة".

لكن لو فرضنا أنّ الإنسان أبتلي بالمعصية، فيجب ألا ييأس من رحمة الله تعالى، لأنّه قد فتح لعباده باب التوبة. فالتوبة: هي من المهذّبات للنفس، وهي الوسيلة لغسل النفس من قذارات الذنوب، وهي عبارة عن التصميم على اجتناب الذنوب والمعاصي، والندم عليها مع الحذر الشديد من الشيطان وإغراءاته، الذي يدعونا باستمرار للاستهانة بالمحرّمات والمعاصي والعودة إليها، وقد شجّع الإسلام على التوبة، وحذّر من اليأس بقوله تعالى: (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) (الزمر/ 53).

1- فلسفة التوبة:

إنّ الذي عصى في هذه الدنيا وتحدّى إرادة الله سبحانه، يكون قد إبتعد عن مقام الإنسانيّة واقترب من مقام الحيوانيّة، وعندئذٍ يحرم هذا الإنسان من بركات القرب من الله في الجنّة، ولا يبقى أمامه سوى التوبة والاستغفار، والذي أمر بالتوبة هو الذي يقبل التوبة، يقول تعالى: (وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ) (الشورى/ 25).

2- حقيقة التوبة وشروطها:

إنّ الندم على الذنب هو توبة، لكن المقصود هو الندم الحقيقي، الذي يكون له آثاره ونتائجه على المستوى العمليّ، قد يتصوّر البعض أنّ مجرّد قوله: "تبت إلى ا" يكفي لتحقّق التوبة، وهو غير صحيح لأنّ التوبة لها شروط لا تتحقّ َق إّلا بها وهي:

1- أن يشعر بالنفور من ذنبه وتغلُبه الحسرة عليه.

2- أن يصمّ ِم على عدم العودة إلى الذنب مجدّ َداً.

3- أن يسعى لجبران ما أمكن جبرانه، كأنه يؤدّي حقّ َ أحد من الناس كان قد غصبه حقّ َه أو أن يطلب المسامحة ممّن استغابه، أو أن يُرضي من ظلمه، أو أن يقضي ما فاته من فرائض وواجبات، كالصلاة والصوم، وهكذا..

يقول الإمام عليّ (ع) بعد أن سمع رجلاً يقول استغفر ا: "ثكلتك أمّ ُك، أتدري ما الاستغفار؟ الاستغفار درجة العليين، وهو اسم واقع على ستة معان، أوّلها: الندم على ما مضد؛ والثاني: العزم على ترك العود إليه أبداً؛ والثالث: أن تؤدّي إلى المخلوقين حقّهم حتى تلقى ا أملس ليس عليك تبعة؛ والرابع: أن تعمد إلى كلّ فريضة عليك ضيّ َعتها فتؤدّي حقّها؛ والخامس: أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان، حتى يلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد؛ والسادس: أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول: أستغفر ا".

3- ضرورة التوبة:

إذا كنّا ندرك تلك الآثار الخطيرة للذنوب في الدنيا والآخرة، كأن تنزل النقم وتحبس النعم وتمنع الرزق وتجرّنا إلى العذاب الأليم، فإنّ العاقل المؤمن بالمعاد وبربّ ِ العباد، لابدّ أن يبادر إلى إعلان توبته، وتطهير نفسه حتى لا يكون محروماً في الدنيا وشقيّاً في الآخرة، وإنّ التوبة من الذنوب تؤدّي إلى تطهير القلوب.

عن أبي جعفر (ع): "ما من عبدٍ إّلا وفي قلبه نكتة بيضاء، فإذا أذنب خرج في النكتة نكتة سوداء، فإن تاب ذهب ذلك السواد، وإن تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد حتى يغطّي البياض، فإذا غطى البياض لم يرجع صاحبه إلى خير أبداً وهو قول ا: (كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (المطففين/ 14)".

4- الأمور التي يجب التوبة منها:

يجب على الإنسان أن يتوب من كلّ ما يحول بينه وبين السير والسلوك إلى ا تعالى، يجعله متعلّقاً بالدنيا، ويمكن تقسيم الذنوب التي يجب أن نتوب منها إلى قسمين: أخلاقيّة وعمليّة:

أ- الذنوب الأخلاقية: والمراد بها الأخلاق السيّ ِئة والصفات القبيحة، التي تلوّث النفس وتجعل الحجب بينها وبين ا تعالى، كالرياء، والنفاق، والغضب والتكبّر، والعجب، والمكر، والخداع،

والغيبة، والبهتان، والكذب، وخلف الوعد، وعقوق الوالدين، وقطع الرحم، والتبذير، والإسراف، والحسد، والفحش، والسباب وسوء الظنّ ِ، وتتبّع عيوب الناس، واحتقار المؤمن وإذلاله، وغير ذلك من الصفات السيئة.

ب- الذنوب العملية: وهي كلّ الذنوب التي ترتبط بالأعمال كالسرقة، وقتل النفس، والزنا، ودفع الربا وأخذه، وغصب أموال الناس، والغشّ في المعاملة، والفرار من الجهاد، وخيانة الأمانة، وشرب الخمر، وترك الصلاة والصيام والحجّ والخمس، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأكل الطعام النجس وغير ذلك من المحرّمات.

5- ثمار التوبة:

للتوبة ثمار جليلة في الدنيا وفي الآخرة أهمّها:

أ- تكفير السيّ ِئات ودخول الجنّة: إنّ التوبة تؤدّ ِي إلى إزالة سيّ ِئات الإنسان من صحيفة أعماله، يقول تعالى: (يَا أَيّ ُهَا الّ َذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللّ َهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبّ ُكُمْ أَنْ يُكَفِّ َرَ عَنْكُمْ سَيِّ ِئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنّ َاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ) (التحريم/ 8).

ب- محبّة ا: إنّ التائب الحقيقي سوف يحصل على محبّه ا تعالى وينال رضاه، يقول تعالى: (إِنّ َ اللّ َهَ يُحِبّ ُ التّ َوّ َابِينَ وَيُحِبّ ُ الْمُتَطَهِّ ِرِينَ) (البقرة/ 222).

ت- الستر: إنّ توبة العبد تؤدّ ِي إلى الستر عليه، فيأتي يوم القيامة لا يُدرى بذنبه، يقول الإمام الصادق (ع): "إذا تاب العبد توبةً نصوحاً أحبّ َه ا فستر عليه، فقلت: وكيف يستر عليه؟ قال: ينسي ملكيه ما كانا يكتبان عليه، ويوحي ا إلى جوارحه وإلى بقاع الأرض أن اكتمي عليه ذنوبه، فيلقى ا عزّ وجلّ حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب".

- الخلاصة:

1- أفضل سبيل للتزكية عدم المعصية.

2- فلسفة التوبة أنّها تفتح باباً للرحمة والقرب من ا.

3- حقيقة التوبة الندم الذي يستلزم ترك الذنب وتأدية الحقوق.

4- من يدرك خطورة الذنب لابدّ أن يقدم على التوبة.

5- ما يجب التوبة منه ليس فقط الذنوب العمليّة كالسرقة وقتل النفس والزنا. بل أيضاً الذنوب الأخلاقية والرياء والنفاق والغضب.

6- للتوبة ثمار كثيرة، منها تكفير السيّ ِئات وتبديلها إلى حسنات ومحبّة ا والستر و..

المصدر: كتاب دروس في تزكية النفس (سلسلة المعارف الإسلامية)